الفصل الأول

بلاد العرب — جغرافيتها وحالتها الطبيعية — العرب القدماء

بلاد العرب جغرافيتها وحالتها الطبيعية

بلاد العرب شبه جزيرة مترامية الأطراف ، واقعة فى الجنوب الغربى من آسيا ، تحدها من الشمال بادية الشام ، ومن الشرق خليج فارس ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر ، وتنقسم تلك الرقعة الفسيحة التى تبلغ مساحتها ضعفى مساحة فرنسا — حين كانت فى أوج عظمتها — إلى عدة أجزاء أو أمصار ، يختلف بعضها عن البعض الآخر — قليلا أو كثيراً — من حيث التربة والمناخ وأحوال السكان .

كذلك يقع فى شماليها القسم المكون من التلال حيث كانت تسكن فى الأزمنة القديمة قبائل الأدوميين والمديانيين الذين جاء ذكرهم فى التوراة ، كما يلى ذلك القسم سهول الحجاز ، ومن أهم مدنه « مكة المكرمة » مسقط رأس النبى (صلى الله عليه وسلم) ، و « المدينة المنورة » أو « يثرب » كما كانت تسمى من قبل ، وميناء جدة وهى ثغر الحجاج المسلمين . ويمتد ذلك الإقليم من الشمال إلى الجنوب بين البحر الأحمر وبين سلسلة الجبال الممتدة من خليج السويس إلى المحيط الهندى .

أما الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ، فتعرف ببلاد اليمن ويطلق اسم « تهامة » على سهول الحجاز واليمن كما يقصر هذا الاسم أحياناً على جنوبى الحجاز .

كذلك تقع حضرموت فى شرقى اليمن على ساحل المحيط الهندى ؛ كما تقع عمان فى منتهى شرقى حضرموت وتشرف على الخليج المسمى باسمها . أما « الأراضى

المرتفعة » الممتدة من جبال الحجاز شرقاً حتى صحراء الأحساء والبحرين على الخليج الفارسى فتسمى بلاد « نجد » ، وهى أرض واسعة ذات أغوار وصحارى رملية ، مبثوثة فيها مزارع مزهرة تسمى بالواحات وتشكل عدة موانئ أمينة فى الصحراء . وليس بهذه الرقعة الفسيحة أنهار صالحة للملاحة ، إنما يوجد فيها نهيرات وسهول قليلة مبعثرة هنا وهناك ، حيث تخصب التربة ويندر المطر ، ولذلك كانت قاحلة مجدبة ، اللهم إلا حول الأمواه حيث تتوفر الخصوبة .

ويطلق على أرض « اليمن المرتفعة » اسم جبال اليمن ويكاد يبلغ ارتفاعها ارتفاع جبل « مونت بلانك » . وهى تنشطر إلى عدة أودية فسيحة خصبة يزرع فيها البن والنيلة والفخيل وصنوف الخضر وأشجار الفاكهة على أنواعها . ومناخها معتدل بالرغم من وقوع الجليد فى الشتاء وحلول موسم المطر فى فصلى الخريف والربيع .

أما الحجاز فبلاد وعرة كثيرة الأنجاد والوهاد ، وبخاصة فيما جاور « مكة » الواقعة على بعد خمسين ميلا من ساحل البحر الأحمر ، وحوالى ثلاثين ميلا من روابى جبل القرى الغرانيتى . وفى ذلك القطر تتكشف الطبيعة عن أبرز أوصافها حيث الصخور الجرداء التى تسطع عليها أشعة الشمس المتلظية ، والقيعان الجافة ، والأودية المقفرة ، يعلوها الكلأ القليل الذى ترعى فيه الأنعام فلا تكاد تنال كفايتها . بينما يقع فى شرقيها صقع باسم يطلق عليه اسم « الطائف » مزدهر بالخضر وأشجار الفاكهة كالتفاح والتين والرمان والخوخ والعنب .

العرب القدماء

استوطن جزيرة العرب فى مختلف الأزمنة أجناس متنوعة ، ويقال : إن أول من نزح إلى تلك البلاد قدم من الأصل الذى ينتمى إليه الكلدانيون القدماء ، وكانوا قد بلغوا شأواً عظيما فى الحضارة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم فى جنوبى الجزيرة . ومن المظنون أنهم بسطوا سلطانهم على مصر والجزيرة كما يظهر أنهم كانوا قد بنوا قصوراً شامخة ومعابد ضخمة ، وإليهم يعزى تشييد

« سد مأرب » الذى لا يزال قائماً حتى اليوم بالقرب من عدن .

القحطانيون

وقد قضى على هؤلاء القوم قبائل من الجنس السامى كانت قد نزحت مما يلى الفرات شرقاً ونزلت باليمن و بعض أنحاء « حضرموت » . ويقال : إن تلك القبائل ترجع فى نسبها إلى قحطان أو « جوتان » وقد أطلق اسم أحد أولاده المدعو « يعرب » على تلك البلاد وأهلها ؛ كما تسمى ملوك تلك الدولة « بالسبئيين » نسبة إلى حفيد « يعرب » عبد شمس الملقب « بسبأ » ويجب أن نذكر أن ملوك قحطان كانوا غزاة فاتحين نالوا شهرة واسعة فى تشييد المدن ، وظلت دولتهم قائمة فى اليمن و بعض أنحاء بلاد العرب حتى القرن السابع الميلادى .

الإسماعيليون

ويعرف آخر من استوطن تلك البلاد بالإسماعيليين نسبة إلى « إسمعيل » ولد « إبراهيم الخليل » الذى عاش فى مكة ، ثم انتشر أولاده وأحفاده فيما بعد فى أنحاء الحجاز ، وهؤلاء فى الواقع هم مشيدو مجد الجزيرة ؛ ويقال إن « إسماعيل »[1] هو الذى شيد الكعبة التى يقدسها العرب منذ أقدم الأزمنة ، وهى تعد الآن أقدس بقعة فى العالم الإسلامى ، كما يوجد فيها الحجر الأسود المشهور .

الأعراب

وينقسم العرب عامة إلى قسمين : حضر وهم سكان المدن ، وبدو وأولئك هم الذين يقيمون فى البادية فى مساكن من بيوت الشعر ، ويهيمون مع أنعامهم وأسرهم فى الصحارى والهضاب انتجاعا للمرعى . ويظهر أن شمالى بلاد العرب ووسطها لم يقعا تحت سيطرة الأجانب فى أى وقت من الأوقات ، إنما اليمن وحدها هى التى عنت لسلطان الأحباش ردحا من الزمن ، حتى قيض لها أحد رؤساء القبائل العربية المسمى « بسيف بن ذى يزن » فأجلاهم عن البلاد بمساعدة ملك الفرس الذى ولى عليها حاكما فارسيا يسمى « بالمرزبان » لمدة قرن أو أكثر .

---

(١) جاء فى القرآن الكريم : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ، الآية » (المعرب)

ديانتهم

وقد بقى المسيحيون واليهود ، الذين استوطن عدد كبير منهم فى بلاد العرب على دينهم ، أما العرب أنفسهم فكانوا على الأغلب يعبدون الأوثان والنجوم . وكان لكل مدينة ولكل قبيلة آلهتها ومعابدها . وفى مكة وحدها — التى كانت تعتبر مركزاً للحياة الاجتماعية فى بلاد العرب — بلغ عدد الأصنام المنصوبة حول الكعبة المقدسة ٣٦٠ صنما تمثل جميع الآلهة التى يعبدونها ؛ كذلك كان تقديم القرابين البشرية عادة مألوفة بينهم .

وكان العرب المستوطنون فى تلك البلاد الفسيحة و بخاصة الرحّل منهم ، الذين يهيمون فى البادية الممتدة إلى غربى الفرات يعرفون عند اليونان والرومان باسم « سراسين » وهو الاسم الذى أطلقه عليهم الغربيون عند ما نزح أولاء من أوطانهم لتدويخ العالم . ومن المظنون أن عبارة « سراسين » مشتقة من كلمة « صحارى » وكلمة « نازحين » أو من كلمة « شرقيين » فحسب .

أسواق العرب(١)

اتفق العرب فيما بينهم على جعل أربعة أشهر حُرُما ، تبطل فى خلالها المنازعات ، وتحقن الدماء ، وقد استغلوا هذه السانحة واستعملوها لتبادل المتاجر ، وعقدوا أسواقا كعكاظ وذى المجاز للمباراة فى ميدان الفصاحة شعراً ونثراً ، فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم ، وأخذت لغة قريش تسود غيرها من اللغات حتى نزل القرآن الكريم بها وأصبحت اللغة الأدبية والرسمية .

(١) قد أضفنا هذه الفقرة إلى الكتاب إتماما للبحث .